**المستوى : ماستر1 .**

**التخصص : لسانيات عربية .**

**المحاضرة**

**المصطلح الصوفي ومجالاته التطبيقية**

- التفسير الصوفي للقرآن الكريم نموذجا-

**د/بومدين كروم**

**مقدمة :**

لقد أضحى التصوف في الإسلام، منذ أواخر القرن الثاني الهجري و بداية الثالث تيارا معرفيا متناميا استهدف تحرير النفس الإنسانية من قيد المادة، والسمو بها في عالم الروح الرحيب؛ فهو تيار هائج داخل بحر الثقافة الإسلامية العميق والواسع، لكنه تيار متميز في تصوره، وطرائقه الفكرية والسلوكية؛ قد أوغل أصحابه في تجاربهم في فضاء المعنى إلى حد الشطط أحيانا، غير أنها كانت إضافات نوعية أغنت حقل المعرفة الإسلامية بما أنجزته من كشوف ورؤى جديدة أحيانا أخر. ولعل أوضح إنجاز لهذه التجربة هو المصطلح. فما هو المصطلح الصوفي ؟ و ما هي حدوده ؟ وما هي مجالاته التطبيقية ؟ وما علاقته بالنص القرآني تحديدا ؟

**1 – المصطلح الصوفي :**

هو لفظ تواضع الصوفية عليه، وأعطوه دلالة جديدة، خاصة بهم، ليكون وسيلة اتصال فيما بينهم، وأداة تعبير عن أذواقهم وتجاربهم، وهو سلوك ألجأتهم إليه الرغبة في كتم أسرارهم، والضن بها على غيرهم ممن لم يذق أذواقهم، وهذه الخصوصية هي التي أشار إليها القشيري بقوله :

» اعلم أن لكل طائفة من العلماء ألفاظا يستعملونها , وقد انفردوا بها عن سواهم ، كما تواطؤوا عليها لأغراض لهم فيها ، من تقريب للفهم على المتخاطبين بها ، أو للوقوف على معانيها بإطلاقها وهم يستعملون ألفاظا فيما بينهم ، قصدوا بها الكشف عن معانيهم لأنفسهم و الستر على من باينهم في طريقتهم، لتكون معاني ألفاظهم مستبهمة على الأجانب ، غيرة منهم على أسرارهم أن تشيع في غير أهلها ، إذ ليست حقائقهم مجموعة بنوع من التكلف ،أو مجلوبة بضرب من التصرف ، بل هي معان أودعها الله تعالى في قلوب قوم ، واستخلص لحقائقها أسرار قوم «  1 ثم صرّح أن غايته من تأليف كتاب الرسالة ، هي شرح هذه الألفاظ ، تسهيلا للفهم على من يريد معرفة معاني الصوفية و سلوك طريقهم 1

وهي الخصوصية ذاتها التي يؤكدها عبد الرحمن بن خلدون بقوله :

» فلا يظنن أن ألفاظهم التي اصطلحوا عليها تفيد غيرهم ، وإنما تواضعوا عليها للكلام فيما بينهم لا لخطاب من لم يذق أذواقهم2 «  

غير أن ضرورة التواصل مع الآخر ) الأغيار( أو أهل الظاهر أو الرسوم، كما ينعتهم الصوفية قد اضطرتهم إلى شرح ألفاظهم ورموزهم، فوضعوا مصنفات ورسائل حددوا فيها مصطلحاتهم وما ترمي إليه، تقريبا للأفهام، ودفعا للتهم، وهو ما ذكره محي الدين بن عربي في مقدمة كتاب اصطلاحات الصوفية، فقال:

  » أما بعد ، فإنك أشرت إلينا بشرح الألفاظ التي تداولها الصوفية المحقّقون من أهل الله بينهم، لمّا رأيت كثيرا من علماء الإسلام وقد سألونا في مطالعة مصنّفاتنا، ومصنفات أهل طريقنا ، مع عدم معرفتهم ، بما تواطأنا عليه من الألفاظ التي بها يفهم بعضنا عن بعض ، كما جرت عادة كل فن من العلوم ، فأجبت إلى ذلك ولم أستوعب الألفاظ كلها ، ولكن اقتصرت منها على الأهم فالأهم ، وأحجمت عن ذكر ما هو مفهوم من ذلك عند كلّ من ينظر فيه بأول نظرة، لما فيها من الاستعارة والتشبيه3 «.

غير أن ما يلحظه الدّارس لهذا المصطلح هو أنه يفتقر في الغالب، إلى الدّقة والوضوح المطلوبين في كل مصطلح علمي؛ فقد يحد بكلمات فضفاضة، ومبهمة، وقد يعرف بأكثر من تعريف، فيتسع الشرح، ويتشعب في الاصطلاح الواحد، رغبة في الإحاطة بالمعاني، والزيادة في الإيضاح، ولكنها توسعة أضرت بالمصطلح من حيث أرادت خدمته، فأبعدته عن الدقة والإيجاز وهما من أهم شروطه.

وما يلحظ كذلك هو اختلاف العلماء المصنفين في ذلك، مما يؤكد احتكام الاصطلاح عندهم إلى التجربة الذوقية، لا إلى المعرفة النظرية، وهي تجربة ذاتية فردية، ينكشف لها ما لا ينكشف لغيرها من التجارب الأخر، من الأذواق والمعارف؛ فالتعريف، تبعا لهذا تعبير عن تجربة، وهو من هذا المنظور إبداع، والإبداع مفض بطبيعته إلى التنوع والاختلاف.

**2- المجالات التطبيقية**:

لقد نقل الصوفي المصطلح من مجاله النظري إلى مجالاته التطبيقية، وهي كالآتي :

**1**-**الأعمال الإبداعية:**

**-أ- الشعر :**

لقد أكثر الصوفية من نظم الشعر للتعبير عن تجاربهم وأذواقهم لما وجدوا فيه من طاقة تعبيرية، تتسع لأساليب الرمز والإشارة، والتصوير والخيال، وقد قال لسان الدين بن الخطيب في هذا الشأن معلّلا اتكاءه على الشعر، واعتماده وسيلة تعبير :  » واستكثرت من الشعر لكونه من الشجرة بمنزلة النسيم الذي يحرك عذبات أفنانها، ويؤدّي إلى الأنوف روائح بستانها، وهو المزمار الذي ينفخ الشوق في يراعته، والعزيمة التي تنطق مجنون الوجد من ساعته، وسلعة ألسن قنائص الأذواق، به عبّر الواجدون عن وجدهم، وأشار المحبون إلى قصدهم، وهو رسول الاستلطاف، ومتنزّل الألطاف، اشتمل على الوزن المطرب، والجمال المعجب المغرب، وكان للألحان مركبا، ولانفعال النفوس سببا، فلا شيء أنسب منه للحديث في المحبة، ولا أقرب للنفوس الصّبة. «  4

وما وصلنا من مدونات النص الشعري الصوفي، وهي كثيرة، دليل على أن الشعر كان المجال التطبيقي الرحيب للمصطلح الصوفي.5

**-ب- النثر :**

وهو نثر فني كالذي نجده في كتاب المواقف للنفري، وبعض رسائل ابن عربي، والإشارات الإلهية لأبي حيّان التوحيدي وغيرهم.

**الحكم**:وهي كلمات مكثفة مرسلة، قالها المتصوفة تعبيرا عن تجربة خاضوها ومنها حكم أبي مدين شعيب، والحكم الإلهية لمحي الدين بن عربي، وحكم ابن عطاء السكندري وغيرها.

**-ج- الشروح :**

الشروح هي المجال التطبيقي الثالث للمصطلح الصوفي، وفيها نلحظ التوفيق الذي حققه الصوفي في توضيح النص من منظور صوفي، كما نقف على عملية إكراه اللفظ على معنى لا يحتمله، حدث ذلك في الشعر6

وكذا في تأويل النص القرآني.

**2- تأويل القرآن الكريم**:

القرآن الكريم كتاب الله المعجز، وحجته البالغة إلى خلقه، أوحى به إلى خير البريّة وأفصح العرب محمد صلّى الله عليه وسلم بلسان عربي مبين، وأودع فيه من المعاني والأسرار، والحكم والمواعظ، والشرائع والأحكام بما يسع الأفهام، ويشغل العقول، ولا أدل على ذلك من كثرة ما ألّف حوله، منذ مراحل التأليف الأولى وإلى الآن؛ وهي مؤلفات قد تعددت اختصاصاتها، بتعدد مشارب مؤلّفيها العلمية والثقافية؛ فقد ألف العلماء في إعراب القرآن، ومشكله وغريبه، وفسروا بعض آيه ببعض، كما فسروه بالمأثور من أقوال الصحابة والتابعين، وفسروه تفسيرا بلاغيا، وآخر علميا، كما عمد بعضهم إلى تفسيره تفسيرا إشاريا تأويليا وهذا التفسير الإشاري التأويلي هو المجال الذي خاضه الصوفية وصبوا في بحره الفسيح جهودهم، وكان ابن عباس) رضي الله عنهما( سبّاقا إلى هذا النوع من التفسير فقد أورد الألوسي في تفسيره أن ابن عباس قال :

» القرآن ذو شجون وفنون، وظهور وبطون، لا تنقضي عجائبه ولا تبلغ غايته، فمن أوغل فيه برفق نجا، ومن أوغل فيه بعنف هوى،أخبار وأمثال، وحلال وحرام، وناسخ ومنسوخ، ومحكم ومتشابه، وظهر وبطن، ظهره التّلاوة وبطنه التأويل فجالسوا به العلماء، وجانبوا به السفهاء.7 «  وفكرة أن القرآن الكريم ظهر تمثله التلاوة، وبطن ينهض به التأويل هو ديدن الصوفية في مقارباتهم للقرآن الكريم، وهي مقاربات في مستويين :

**-1 التفسير الإشاري** : لقد حدّه العلماء بقولهم» : إنه معاني الأسرار القرآنية تنقدح في قلب المؤمن التقي8 «، كما وضعوا له شروطا ضابطة أبرزها عدم التنافي مع ما يقتضيه القرآن الكريم من دلالة 8.

وكان أول من شارك في هذا النوع من التفسير عبد الله بن عباس )رضي الله عنهما(، وشارك فيه العلماء العاملون من بعده، ويوجد حظ وافر منه في التفسير المنسوب إلى ابن عربي9.

-2**التفسير الصوفي :**  يظهر هذا التفسير بوضوح في التفسير المنسوب إلى الشيخ محي الدين بن عربي الحاتمي المرسي الأندلسي، وهو تفسير يتجاوز قيد التفسير بالإشارة إلى حدّ الغلو في التأويل الباطني للفظ القرآني، بما يخرج به عن طبيعته اللغوية، وحدوده السّياقية، فينقل اللفظ من سياقه القرآني العادي إلى سياق غريب مختلف، يترتب عليه فهم جديد للقرآن، يفضي إلى تعطيل أحكامه؛ وهو أمر وقف عنده العلاّمة عبد الرحمن ابن خلدون ، وبين خطره في هذا المجال بقوله :

… »يفسّرون المتشابه من الشريعة كالروح والملك والوحي والعرش والكرسي وأمثالها، بما لا يتّضح أو يكاد،وربما يتضمن أفعالا منكرة ومذاهب مبتدعة، ككلمة الباطنية في حمل الكثير من آيات القرآن المعلومة الأسباب، على معنى باطن، ويضربون بحجب التأويل على وجوهها السّافرة، وحقائقها الواضحة؛ كقولهم في آدم وحواء : إنها النفس والطبيعة، وقولهم في ذبح البقرة : إنها النفس، وقولهم في أصحاب الكهف : إنهم الخالدون إلى أرض الشهوات، وأمثال ذلك. فتسكن كثير من أهل الضلال إلى ذلك، استحلاء لتحصيل الغايات في البدايات......فإذا طالبهم الإنكار بتحقيق دعواهم لجأوا إلى الوجدان الذي لا يتعدى دليله، ولا يتّضح على الغير برهانه،.....وإذا كانت كلماتهم وتفاسيرهم لا تفارق الإبهام والاستغلاق، فما الفائدة فيها.10 «

ولعل الأمر يتضح أكثر بعرض نماذج من هذا التفسير في مستوييه الاشاري والصوفي من خلال تفسير ابن عربي وهي كالآتي :

**المستوى الأول :**

**\*المثال الأول :**

قال ابن عربي في تفسير قوله تعالى : **﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن** **﴾**11

« إنما منع المجادلة مع أهل الكتاب إلا بالطريقة التي هي أحسن، لأنهم ليسوا محجوبين عن الحق بل عن الدين، فهم أهل استعداد ولطف، لا أهل خذلان وقهر، وإنما ضلوا عن مقصدهم الذي هو الحق في الطريق، لموانع وعادات وظواهر، فوجب في الحكمة موافقتهم في المقصد الذي هو التوحيد » 12

**\*المثال الثاني:**

قال ، في قوله تعالى : ﴿**يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا وسبّحوه بكرة وأصيلا** ﴾13  باللسان في مقام النفس، والحضور في مقام القلب، والمناجاة في مقام السر، والمشاهدة في مقام الروح، والمواصلة في مقام الخفاء، والفناء في مقام الذات. « وسبّحوه » ، بالتجريد عن الأفعال والصفات والذات، «بكرة» :

وقت طلوع فجر نور القلب ، وإدبار ظلمة النفس، وليل غروب شمس الروح بالفناء في الذات، أي دائما, من ذلك الوقت إلى الفناء السرمدي»14 وهو تفسير كما نلحظ ،قد تقبله العبارة القرآنية وتتّسع له، لكنها تستغربه في المستوى الثاني الذي ينقلها إلى سياق غريب عن دلالتها القرآنية ومقاصدها الشرعية.

**المستوى الثاني :**

**\*المثال الأول:** قوله تعالى : ﴿ **شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن، هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان..** ﴾15

قال : شهر رمضان، أي احتراق النفس بنور الحق،)الذي أنزل فيه ( في ذلك الوقت، )القرآن( أي العلم الجامع الإجمالي المسمّى بالعقل القرآني، الموصل إلى مقام الجمع، هداية للناس إلى الوحدة، باعتبار الجمع، ) وبينات من الهدى( ودلائل متصلة من الجمع والفرق،أي العلم التفصيلي المسمى بالعقل الفرقاني،فمن حضر منكم في ذلك الوقت، أي بلغ مقام شهود الذات )فليصمه( أي، فليمسك عن قول

وفعل وحركة ليس بالحق فيه.

)ومن كان مريضا( أي مبتلى بأمراض قلبه من الحجب النفسانية المانعة من ذلك الشهود 16

**\*المثال الثاني:** قوله تعالى : ﴿ **قد نرى تقلّب وجهك في السماء فلنولّينك قبلة ترضاها، فولّ وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيث ما كنتم فولّوا وجوهكم شطره، وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم، وما الله بغافل عما يعملون** ﴾17

قال « قد نرى تقلّب وجهك » في جهة سماء الروح في مقام الجمع عند الاستغراق في الوحدة والاحتجاب بالحق عن الخلق...

« فلنولّينك قبلة ترضاها» فلنجعلن وجهك يلي قبلة القلب بانشراح الصدر.

« فولّ وجهك شطر المسجد الحرام » جانب الصدر المشروح المحرم من وصول صفات النفس، ودواعي الهوى والشيطان، « وحيث ما كنتم» أيها المؤمنون والمحققون ، سواء كنتم في مشرق الروح أو مغرب الشمس « فولّوا وجوهكم »جانبه ليتيسر لكم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الأولى، أي الجهة الشرقية، والترقي عن حالكم ومقامكم، والتوقي عن احتجابكم بدواعي الهوى والشيطان في الثانية. 18

**\*المثال الثالث :** ﴿**إن** **الصفا والمروة من شعائر الله، فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما، ومن تطوع خيرا، فإن الله شاكر عليم** ﴾19

قال : « إن الصفا والمروة » الصفا:وجود القلب، والمروة :وجود النفس، « من شعائر الله » من أعلام دينه ومناسكه القلبية، كاليقين والرضا، والإخلاص والتوكل، والقالبيّة كالصلاة والصوم، وسائر العبادات البدنية. « فمن حج البيت » أي بلغ مقام الوحدة الذاتية ودخل الحضرة الإلهية بالفناء الذاتي الكلي،« أو اعتمر » نار الحضرة بتوحيد الصفات والفناء في أنوار تجليات الجمال والجلال 20

إن النزعة التأويلية التجريدية في مجال المصطلح الصوفي، كانت نعمة على الأدب، كسرت حواجزه الحسّية وحلّقت به في عالم المعنى السامي، والخيال الفسيح، كما كانت نعمة على الفهوم الفقهية، أبعدتها عن الحرفية النصية، ودلت على ما وراءها من أسرار ومقاصد؛ غير أنها كانت نقمة على القرآن الكريم عندما انساق الصوفي وراء الخيال، وترخص في التأويل، فأطلق المقيد، وقيّد المطلق، وجرّد المحسوس، مما أدى إلى الابتعاد باللفظ القرآني عن دلالته الأصلية، وفي ذلك ما فيه من الخطر على القرآن الكريم من حيث فهمه، وتطبيق أحكامه.

**الهوامش :**

القرآن الكريم , رواية ورش.

-01 الرسالة القشيرية:53 .

-02شفاء السائل : 71 والمقدمة. 2 : 586.

-03ينظر، التعريفات للجرجاني:283.

-04روضة التعريف :1 104-103.

-05 تذكر هنا : أشعار الحلاج، وابن الفارض، وأبي مدين شعيب، ومحي الدين بن عربي، وعفيف الدين التلمساني، وجلال الدين الرومي، وأبي الحسن الششتري، وابن خميس التلمساني .. وغيرهم.

-06 كما في شرح بن عربي على ديوانه: ترجمان الأشواق، وشرح الشيخ أحمد بن عجيبة، والشيخ أحمد زروق، والشيخ عبد الغني النابلسي لشعر الششتري وغيره.

-07 ذكره الألوسي في تفسيره، ينظر الجزء 1 : 7

-08 أصول التفسير وقواعده 209 :

-09 قلت: المنسوب إليه لأن الدارسين اختلفوا في هذا الشأن قديما وحديثا، فمنهم من نفى نسبة هذا التفسير إليه، كالشيخ خالد عبد الرحمن العك الذي قال إن القاشاني الباطني هو الذي وضعه ونسبه إليه، مرتكزا في ذلك على ما قاله الشيخ الشعراني وابن عابدين في هذا الشأن وكلاهما يبرّىْ الشيخ من هذا التفسير، وينفي عنه قوله) ينظر : أصول التفسير242-239 : ( ومنهم من يثبت هذه النسبة، ومنهم المقري الذي أورد في معرض ترجمته له، نص إجازة ابن عربي للملك المعظم يجيزه فيها برواية مصنفاته، وذكر من بينها تفسيره الكبير الذي بلغ فيه إلى سورة الكهف، وقال: إنه توفي ولم يكمله، ثم نعت هذا التفسير قائلا، إنه: « كبير عظيم، كل سفر بحر لا ساحل له، ولا غرو فإنه صاحب الولاية العظمى، والصديقية الكبرى ») ينظرنفح الطيب 177 :2 (. غير أن المتصفح للتفسير المطبوع سنة 1981، يجده ممتدّا إلى سورة) الناس(، مما يدفع إلى القول: إن هذا التفسير، وإن كان له، فإنه مختلط بتفسير غيره، من تلاميذه أو المتفقين معه في المنزع، فنسبته إليه بإطلاق، أو نفيه عنه بإطلاق، غلو في الحكم ذلك لأن المطلع على كتب ابن عربي، وبخاصة كتابه الضخم: )الفتوحات الملكية (. يخلص إلى أن للرجل مشاركة في هذا العلم، قلّت أو كثرت.

-10 شفاء السائل: 51-50.

-11سورة العنكبوت: الآية 46

-12 تفسير بن عربي، 2: 250-249

-13 سورة الأحزاب، الآية 41

-14 تفسير بن عربي، 2:292-291 و1:178 و1: 151

-15 سورة البقرة ،الآية: 184

-16 تفسير بن عربي،1 : 115-114

-17 سورة البقرة ،الآية: 143

-18 تفسير بن عربي،1 : 94-93

-19 سورة البقرة ،الآية:157

-20 تفسير بن عربي،1 : 100-99

**المصادر والمراجع:**

القرآن الكريم, رواية ورش

01 - أصول التفسير وقواعده، تأليف الشيخ خالد عبد الرحمن العك، دار النفائس. ط2 ، بيروت 1986.

-02 التعريفات، لعلي بن محمد الشريف الجرجاني، مكتبة لبنان، بيروت 1978.

-03 تفسير القرآن الكريم ، للشيخ محي الدين بن عربي، تحقيق وتقديم د.مصطفى غالب، دار الأندلس ، بيروت 1981.

-04 الرسالة القشيرية في علم التصوف، تأليف أبي القاسم عبد الكريم بي هوزان القشيري، تحقيق معروف زريق، وعلي عبد الحميد بلطه جي ، دار الخير ط1 ، دمشق 1988

-05أوراح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لأبي الفضل شهاب الدّين الألوسي، دار إحياء التراث العربي، ط4 ، بيروت, لبنان .1985

06- روضة التعريف بالحب الشريف ، تأليف لسان الدين بن الخطيب، تحقيق محمد الكتاني، دار الثقافة .ط1بيروت1970.

07- شفاء السائل إلى تهذيب المسائل لأبي زيد عبد الرحمن بن خلدون،نشرة الأب أغناطيوس عبده خليفة اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية، بيروت1959 .

-08 المقدمة لأبي زيد عبد الرحمن بن خلدون، الدار التونسية للنشر، والمؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر1984.

09- نفح الطّيب من غصن الأندلس الرطيب لأحمك بن محمد المقري التلمساني ، تحقيق الدكتور إحسان عبّاس ، دار صادر، بيروت1968.

المستوى : ماستر1

التخصص : لسانيات عربية

محاضرة

السِّلم والحرب من منظور إسلامي

د.بومدين كروم

(1)

إن ما ينبغي الإشارة إليه بداية هو أن سُننيَّة الكون، سواء في وجهه الظاهر (الطبيعة) أو وجهه الخفي (ما وراء الطبيعة)، قائمةٌ على ثنائيات ضدية، من مثل: النور والظلمة، والحركة والثبات، والصحة والمرض، والحياة والموت، والسلم والحرب، والثواب والعقاب، والجنة والنار، وغيرها، وذلك سرٌّ من أسرار البارئ تعالى في تدبيره شؤونَ خلقِه.

(2)

ثم إن ثنائية: (السِّلم و الحرب) وهي الوجه الآخر المثمر للثنائية ( الحياة و الموت) حاضرة في نصوص الوحي، قرآناً وسنة؛ هي حاضرة بمعنى السِّلم أو ما يحققه وينمو في أجوائه من المعاني اللطيفة والعظيمة، كمعاني العفو والصفح، والعدل والإصلاح، والمحبة والغفران، كما أنها حافلة كذلك بمعنى الحرب، وما تؤدِّي إليه من نتائج وخيمة، وتثمره من فساد في الأرض؛ كمعاني: القتل والإهلاك، والبغي والظلم، والعدوان والطغيان، غير أن ما نلاحظه أن معنى السِّلم في عمومه أكثر ورودا، وأقوى حضورا، مما يؤكد أن السِّلم في الإسلام غاية مقصودة، وثمرة لنظام تربوي توجيهي، يستهدف صياغة العالم الإنساني وفق تصور شامل، متوازن ومتسق مع طبيعة الإنسان، ومهمته في الحياة؛ فهو مجال يُدعى المسلمون إلى دخوله جميعا: ﴿**يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السِّلم كافة، ولا تتَّبِعوا خُطوات الشيطان، إنه لكم عدوٌّ مُبين**﴾**1**،وهو لقيمته تسمَّى الله تعالى به، فمن أسمائه: "السَّلام"، وهو فعل يمارسه المسلمون في ما بينهم، فتحيتهم "سلام" في الدنيا وفي الآخرة، ومنه اشتُقَّ لفظ مسلم. فـ"المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده"**2**.واشتُقَّ منه "الإسلام"، الذي جعله الله تعالى الدين القويم لعباده، لا يقبل منهم دينا غيرَه ﴿**إن الدين عند الله الإسلام**﴾ وقال تعالى: ﴿**ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يُقبَل منه وهو في الآخرة من الخاسرين**﴾**3**

ومن هنا، يمكن القول، إن السِّلم في الإسلام أصل، وأما الحرب فليست إلا وسيلةً لتحقيقه

وحمايته؛ فهو يؤثر السِّلم ويحققه، وينبذ الحرب، ويسارع إلى إطفاء نارها ﴿**كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله**﴾**4،** كما يسارع إلى إخماد نار الفِتن، بالإصلاح بين المتقاتلين، بما يتوجبه ذلك الإصلاح من عدل وقِسط، يمحو الأحقاد، ويزيل الضغائن، لأن الأخوة الإنسانية لا تتحقق إلا في الأجواء النظيفة والقلوب السليمة؛ قال تعالى:

﴿ **وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا** **بينهما، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا، إن الله يحب المقسطين، إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخَويكم، واتقوا الله لعلكم تُرحَمون** ﴾**5**

وجعل الأمن، وهو ظل الإسلام النَّدِي، ثمرة العبودية لله وحده، قال تعالى: ﴿ **لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف، فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف**﴾**6**

وقال جل جلاله:

﴿**ولَيُبَدِّلَنَّهُم مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونني لا يُشركون بي شَيئاً**﴾**7**

إن المتأمل في الإسلام، في أبعاده التربوية والتشريعية يجده يستهدف بناء إنسان جديد، إنسانٍ صالح، قادر على الانسجام الإيجابي مع مُجتمعِه والعالم الإنساني بشكل عام.

فهو يرسِّخ في الفرد والجماعة قيم الفضيلة، ويحارب مظاهر الفساد والرذيلة، ويهيء أجواء السلام للإنسان مع نفسِه، ومع أفراد مُجتَمَعِه، وكذا الإنسانِ في العالم من حولِه.**8**

فالإسلام يُرسي دعائِم السِّلم في ضمير الفرد، وفي الأسرة, وفي المجتمع، ثم في العالم الإنساني، وفق نظرة واقعية، وخطة شاملة، تمكِّن للسَّلام وتبني صرحَه بناءً صحيحاً؛ فكل ما جاء في الإسلام من أوامر ونواه، يصب في هذا المصب، ويخدم هذا المعنى، ويؤسس له؛ فهو لم يأمر إلا بما فيه نفع للفرد في ذاته، وفي علاقاته الاجتماعية والإنسانية، ولم ينه إلا عمَّا هو مُضِر للفرد في ذاته، وبِمجتمعِه والإنسانية جمعاء؛ فقد حرَّم ما ينتُج عنه ظلم للنفس الفردية، أو الآخر؛ والظلم منهِيٌّ عنه مبدئيا لأنه من نواقض السلام.

جاء في الحديث القُدسي:

« **يا عبادي إني حرَّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكُم مُحرَّماً فلا تظالموا** »**9،**

وقال عليه الصلاة والسلام: « **الظلم ظلمات يوم القيامة**»**10،** وقال: «**اتقوا دعوة** **المظلوم وإن كان كافرا، فإنها ليس دونها حجاب** »**11.**

* **أسباب الظلم ودوافعه:**

لقد رسم القرآن الكريم صورا لنماذج بشرية متعددة عكست معنى الاستكبار المُفضي إلى الظلم والطغيان.

* 1. صورة فرعون أو إغراء السلطة: الذي أُغري بسلطة القوة، وسكر بنشوة المُلك، فعَدَل عن القسط إلى الظُّلم، وعن بسط الأمن إلى التخويف والترهيب، وعن حِفظ الحرِّيات إلى الاستبداد والاستعباد، بل ذهب إلى أكثر من ذلك فادَّعى ما ليس له، ولا من استطاعته، عندما صرَّح بقوله: ﴿ **وقال فرعون، يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري** ﴾**13**.
  2. صورة إبليس ( الشيطان) أو المفاضلة الخَلقِيَّة: إنها تعكِس الدافع إلى الظلم بحجة اعتقاد الخيرية الخَلقية أو العنصرية ﴿**وإذ قلنا للملائكة اسجُدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين** ﴾**13**

﴿ **قال ما منعك ألاَّ تسجُد إذ أمرتُك، قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقتَهُ**

**من طين** ﴾**14**

* 1. صورة قارون (المفاضلة العَرضيَّة): قال الله تعالى:

﴿**إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم، وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة، إذ قال له قومه لا تفرح، إن الله لا يحب الفَرحِين، وابتغِ فيما آتاك الله الدار الآخرة، ولا تنسَ نصيبك من الدنيا، وأحسِن كما أحسن الله إليك، ولا تبغِ الفساد في الأرض، إن الله لا يُحِب المفسدين، قال إنما أوتيتهُ عن عِلمٍ عندي** ﴾**15**

إنها صورة تعكِس الإحساس بنشوة المال، وسوء توجيهه، وجَعله أداة بغي، وصرفه عن كونه أداة اقتصاد نافع لصاحبه ولقومه.

* 1. صورة ابني آدم وإخوة يوسف:**16**

وهي تعكس صورة القلب المريض، الغافل القاسي، الذي لا يرى حرجا في إلغاء الآخر، لا لشيء إلا لأنه أوتي خيرا لم يؤته، فهو يزيحه ليحتل مكانه, إنه مرض الحسد والغيرة ,وهو مرض ظالم وقاتل.

* 1. صورة امرأة العزيز:**17**

صورة تعكس استيلاء قوة الشهوة على قلب صاحبها وجوارحه ودفعه إلى إشباع رغبته ولو بإلحاق الأذى بغيره.

إن هذه الصور وغيرها، وإن لم تتكرر في تاريخ الإنسانية بأعيانها، فإنها تكررت فعلاً وممارسة، وتسببت في كوارث اجتماعية حرمت الإنسانية في أجوائها الإحساس بالطمأنينة والسلام.

* **الإسلام وسلام الآخر:**

الآخر، في منظور الإسلام نوعان: إنسان مسالم محايد، وإنسان مكابر مُعادٍ، غير أن نظرته المبدئية إليه نظرة نوعية؛ فهو خليفة الله في الأرض، ﴿ **وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة** ﴾**18**

- وهو كائن مُكرَّمٌ لإنسانيته، ومكانته. ﴿ **ولقد كرَّمنا بني آدم** ﴾**19**

- وهو حر لا ينبغي استعباده أو إكراهه على أمر معيَّن.

« **متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا** »**20**

- والإسلام يوجه أتباعه إلى أن طبيعة التعامل مع الإنسان المحايد ينبغي أن تكون بالبر والحسنى، والعدل والرحمة، وأن دعوته إلى الحق تقوم على أساس من الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن، قال تعالى: ﴿ **ادعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن** ﴾**21**

- ﴿ **لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبَرُّوهم وتقسطوا إليهم** ﴾**22**

ذلك أن الأصل في خلق الشعوب المختلفة هو التعارف والتعاون، لا التنافر والتناطح، وأن مقياس التفاضل بينهم هو التقوى.

قال تعالى: ﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾**23**

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم: « **الناس سواسية كأسنان المشط، لا فضل لعربي على عجمي، ولا لأبيض على أسود إلاَّ بالتقوى** »

- وأما الإنسان المعادي المُؤَدلج، فقد وقف الإسلام في طريقة التعامل معه موقفا حازما صارما، وهو مقسَّم إلى: كافر ومشرك ومنافق، وهم يمثلون الأيديولوجية المعارضة للإسلام معارضة عنيفة، بإعلانهم الحرب عليه وعلى أنصاره، وقد سَنَّ الإسلام وسيلة لمجابهتهم هي وسيلة الجهاد في سبيل الله.

* **الجهاد في سبيل الله وسيلة حماية ودفاع:**

لقد شرع الإسلام الجهاد وسيلة لحماية الدعوة، والدفاع عن مكاسبها وأنصارها، كما شرعه بهدف تحرير الإنسان مطلقا من كل قيد يحول دون وصوله إلى الحقيقة أو وصولها إليه. ومن هنا كانت دعوته إلى التأهب، وإعداد العدة الرادعة، ذلك أن السلام مع الآخر المناوئ والمتربص لا يمكن أن يُبرم إلا من موقع القوة المتفوقة أو المتكافئة، وإلاَّ عُدَّ استسلاما مهينا.

قال تعالى: ﴿ **وإن جنحوا للسَّلمِ فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم** ﴾**26**

﴿ **فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلَون** ﴾**27**

﴿ **وأعِدُّوا لهم ما استطعتم من قوة، ومن رباط الخيل، تُرهِبون به عدو الله وعدوَّكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم، الله يعلمهم**﴾**28**

وإذاً، فالسِّلم مبدأ في الإسلام وغاية، يحققه ويحميه لما يزدهر في أجوائه من قيم إنسانية هادية، وثمار حضارية نافعة.

**الهوامش:**

**(1)** سورة البقرة، الآية: 208.

**(2)** حديث متفق عليه.

**(3)** سورة آل عمران، الآيتان: 19 و84.

**(4)** سورة المائدة، الآية:66.

**(5)** سورة الحجرات، الآيتان: 9 و10.

**(6)** سورة قريش، الآيات: 1-5.

**(7)** سورة النور،الآية:53.

**(8)** للتوسع، ينظر كتاب: السلام العالمي والإسلام للمرحوم سيِّد قطب: 13 وما بعدها.

**(9)** رواه مسلم.

**(10)** حديث متفق عليه.

**(11)** حديث صحيح أورده السيوطي في الجامع الصغير1: 24، تحت رقم: 150.

**(12)** سورة القصص، الآية: 38.

**(13)** سورة البقرة،الآية: 33.

**(14)** سورة الأعراف، الآية: 12.

**(15)** سورة القصص، الآية: 38.

**(16)** سورة المائدة، الآيتان: 29 و30، وسورة يوسف، الآيتان: 7و8.

**(17)** سورة يوسف، 23-34.

**(18)** سورة البقرة: 29.

**(19)** سورة الإسراء: 70.

**(20)** وهي كلمة مشهورة مأثورة عن الخليفة العادل عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

**(21)** سورة النحل: 125.

**(22)** سورة الممتحنة:8.

**(23)** سورة الحجرات: 13.

**(24)** رواه:

**(25)** سورة الأنفال: 61.

**(26)** سورة محمد: 35.

**(27)** سورة الأنفال:60.